مسرحيات أندريه جيد

من العبث أن نحاول فى مقال واحد حصر هذه الآفاق البعيدة التى تبسطها مسرحيات أندريه جيد ، وإنما ننتهز مرور أندريه جيد بالقاهرة ، ونتأثر دار « الكاتب المصرى » التى نشرت ترجمة عربية للباب الضيق وتوشك أن تنشر تراجم أخرى لثلاثة من كتبه ، فنكشف للقراء عن ناحية من نواحى الانتاج الفنى لأندريه جيد ، لم تتعمَّق بعد ، وهى أدبه المسرحى .

ولن نتحدث إلا عن قصص أربع وهى : « شاول » سنة ١٨٩٦ (وكان عمر جيد وقتئذ ٢٧ سنة) و « فيلوكتيت » سنة ١٨٩٩ و « الملك كوندول » سنة ١٩٠١ و « أويديپوس » سنة ١٩٣١ ؛ لأن هذه القصص أهم محاولاته التمثيلية . والنية أن نستخلص من هذه المسرحيات ، لا أقول علماً متسعاً متماسك الأطراف ، وإنما أقول بعض ملاحظات نفسية وخلقية . فإن جميع الأبطال الذين سُميت القصص بأسمائهم يُثيرون استطلاعنا لا من حيث إنهم يخضعون لقوة تقهرهم وتقودهم إلى حيث لا يريدون فحسب ، بل من حيث إن كل واحد منهم على عكس ذلك يحمل فى طيات نفسه ضرورته الصارمة ، ومأساته الخاصة التى لا يشاركه فيها غيره . وقد لاحظ جيد فى محاضرته التى ألقاها سنة ١٩١٩ ، فى الأساطير اليونانية : « أن كل بطل من هؤلاء الأبطال يحمل سلاحه المقصور عليه » . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن كل واحد منهم يحمل سلاحه وموقعته وميدان هذه الموقعة .

وقد استعار جيد موضوع قصة «شاول» من التوراة (سفر الملوك) وهو معقد إلى حد ما كأنه صورة مطابقة لما فى نفس هذا الملك من تعقيد وغموض . فإن الستار يرفع عن تحزب مروع وتحالف شيطانى ، ولا يكاد الناظر يشهد هذا المنظر حتى يشعر بأن الصراع سيكون عنيفاً ، وأن الثبات لهذه المصاعب العسيرة يقتضى رجلا فذا ؛ فقد اصطلح الغضب والجنون والإثم والخوف والتسلط والغرور والفجور على أن تقتحم شخص الملك لتستأثر بنفسه ، والملك معذب قد

عكف على الشراب دون أن يظفر بالسكر ، وقد قتل السحرة جميعاً وهو يريد أن ينفذ إلى المستقبل ، وإلى مستقبله خاصة ، وهو يسأل السماء عن ذلك عبثاً . يحتفظ الملك بسر أو يحاول أن يحتفظ به ، ولكن خاصته فى قصره (والمثل يقول : من مأمنه يؤتى الحذر) وهم الملكة ونابال الكاهن الأعظم وجويل الفراش والحلاق قد ائتمروا أن ينفذوا إلى ضمير الملك ، وقد همس الحلاق فى أذن الملكة متنبئاً أو موحياً باسم داود ، فلم يكد الكاهن يسمع هذا الاسم حتى اهتم له وإذا داود يُدعى إلى القصر . ولا يكاد يوناتان بن الملك وولى عهده فى أكبر الظن يرى الفتى حتى يكلَف به ، وإذا هو يدعوه كما يدعى فى أسرته باسمه المصغر دويد والحرب قائمة بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل ، وبطل الفلسطينيين جالوت يتحدى فى كل يوم أولى البأس من بنى إسرائيل . وإذا داود يدعوه إلى المبارزة فيقدم على ذلك وحيداً أعزل .

فاذا كان الفصل الثانى فقد استكشف جويل والحلاق سرًّا وهو أن صموئيل قد رسم داود فى بيت لحم ، وقد ارتفعت الأصوات وصيحات الفرح من كل صوب تهتف باسم الفتى المنتصر ، فيغضب الملك لذلك لكنه لا يكاد يرى داود حتى يسقط غضبه كما يسقط النقاب . فهو يحب الفتى ويريد أن يتخذه لنفسه مغنيا . وقد أقبلت الملكة وهى سعيدة لأنها وصلت داود بالقصر ، وهى تثنى على منقذ بنى إسرائيل وتوصيه بأن يلاحظ الملك ويحمل إليها أنباءه . وقد ملكها عطفها عليه حتى دفعها إلى أن تمس خدّه . والملك مستخف وراء أحد العمد يسمع الحديث ويتبعه (كما يتسمع أويديبوس وكريون لحديث ايثيوكليس وبولينيس) وإذا هو ثائر قد هجم على الملكة فأرداها . ولا يكاد يخلو إلى نفسه فى أثر ذلك حتى يحيط به الشياطين ويأخذوه من كل وجه .

فإذا كان الفصل الثالث فالحلاق وجويل على ما بينهما من ريبة (فلا أمن فى ظل ملك تدفعه الغيرة إلى قتل زوجه) يحاولان أن يستكشفا سر شاول .

وقد ظهر يوناتان فى شارة الملك التى ينوء بها والتى يفرضها عليه أبوه يهيئه بذلك للنهوض بأعباء الملك يوماً ما ، والفتى يتخفف من المعطف والتاج يلقيهما إلى داود فيحملهما دون أن يجد لهما ثقلا . والملك يلحظ ذلك من مخبئه . فإذا سمع داود يقول لابنه : « تعرَّ عن ضعفك بين ذراعىَّ » وسمع ابنه يدعو الفتى دويد لم يملك نفسه أن يدخل بينهما . وقد هم الملك أن يخفى نفسه على الناس ، ولعله همّ

أن يسترد شيئاً من شبابه، فأزال لحيته وسعى إلى الساحرة وهى الوحيدة التى أفلتت من الموت، وهو يطلب إليها أن تستحضر روح صاموئيل فتجيبه إلى ما أراد. فيالها من نبوءة يتبين منها الملك أن العرش صائر إلى داود وأنه وابنه مقتولان. وهو يثور لهذه النبوءة فيقتل الساحرة. ولكنه حين يعود إلى القصر يرى داود ويسمع لإيقاعه فيستسلم لأحلامه الحلوة ويدعو الفتى باسم دويد، فاذا سمع الفتى ذلك ألقى قيثارته فتحطمت وانصرف.

والفصل الرابع أقسى فصول القصة، ففيه يودّع داود صديقه يوناثان لأنه سينضم إلى الفلسطينيين. ولكنه على ذلك يضرب له موعداً فى كهف يعينه ليلتقيا فى اليوم الثانى من أيام المرقعة. وقد اعتزل شاول فى الصحراء حيث تسلطت عليه المغريات التى لا تحصى، وهو يُرَدُّ إلى القصر أشعث مختلط العقل. والشعب يسخر منه ولا يسمع لهذيانه أحد إلاساقيه الذى يحبه، فإنه يرثى له ويبكى لما صار إليه من الوحدة، والملك يسأله عن الصديقين فلا يعرف منه شيئاً، ثم هو يشهد اجتماع الصديقين فى الكهف ويسمع حديثهما.

فإذا كان الفصل الخامس فقد انتهى سقوط شاول إلى غايته. فهو فى مرادقه حريص على العزلة. ولكن شيطاناً فى صورة طفل يرتعد من البرد قد أخذ يغريه، ومع أن ابنه يوناثان يدعوه إلى أن يتبعه، فان الملك يعرض عن ابنه ويتاقى الصبى وقد أخذت شياطين أخرى تقبل مرتعدة من البرد والملك يقاوم شيئاً ثم يستسلم، وقد أبى وأصر على الإباء أن يتبع ابنه. وإذا جويل يقتل الملك ثم يرى نفسه وقد قضى داود عليه الموت. وقد قتل يوناثان كذلك. وتنتهى القصة إلى هذه الخاتمة الفاجعة.

وهذه القصة التى توشك الحركة فيها أن تخفى القيمة النفسية لا تعنينا من الناحية التمثيلية وحدها؛ فالحوادث فيها كما فى غيرها من المسرحيات تصوّر الحياة وتعطى كل شخصية سماتها المميزة لها، ولكنها ليست غاية فى أنفسها وإنما هى كالخصائص الخلقية وسائل إلى قضايا عامة تستنبط منها. وقد استطعنا بفضل محاضرة ألقاها جيد فى بروكسل فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٤ عن تطور المسرح أن نفهم فيم تجاوزت قصة شاول التوراة بل تجاوزت إطار المسرحية نفسها وأصبحت مشخصة لبؤس فردى. فقد أراد جيد أن يتخذ من شاول صورة الملك المعذب الضارع الذى لا يستجيب الله له على حين أنه فى أشد الحاجة إلى الله. ومصدر

عذابه الذى يؤرق عليه ليله ، بما يبعث فى نفسه من هموم النهار، ليس حاجته إلى أن يعرف اسم ولى عهده ، وإنما هو شعوره بأن فى قلبه سرًّا يجهله «وهذا السر يضطرب فى قلبه كما يتخبط الطائر بجنبات قفصه » . ولكن بؤس شاول أشد من هذا خطراً ؛ فخاصته الذين يحيطون به من زوجه إلى حلاقه لا يعينونه على ما يسمو إليه من يقين مطلق، وإنما هم يوسعون أمامه هوة الوحدة التى تدعوه إلى نفسها كلما خطا خطوة . وهو يرتاب بامرأته أكثر مما يرتاب بأى شخص آخر . يقول عنها : « إن هذه المرأة تمقتنى وإنى لها لمبغض » . ويقول لها : « حسبك يا سيدتى وقد استمعت لك وقتاً كافياً » . فاذا أقرت اختيار عازف على القيثارة قال : «أما وقد اختارته هى فيجب أن يكون مصدر شر لى » . ولكن لِمَ يترنح شاول كما يترنح الشيخ الهرم ؟ فإذا اختبر نفسه فى الفصل الخامس لم يجد فيها قدرة على المقاومة ، وإذا بطش به جويل لم يصادف منه إلا رجلا محطما متهدما . لماذا يقول لداود إن نفسه تذوق عذاباً لا يقاس إليه شئ ؟ إن خلاصة سره هى ما تنبئ به الساحرة ، ولكنها حين تنبئ به لا تجد من يسمع لها من الذين كانوا يحرصون على أن يتعرفوا هذا السر : « أيها الملك الذى أعده الشقاء لاستقبال كل طارق : أغلق بابك » . إنما هلك شاول لأنه فتح بابه . . . لأنه استقبل داود ولأنه استقبل الشياطين ولأنه لم يفهم « أن كل ما كان يعجبه قد كان له عدوًّا » .

لم يكن بد لليونان من أن يحصلوا من فيلوكتيت على قوس هرقل وسهامه لينتصروا على الطرواديين . هذا هو منشأ القصة الثانية وموضوعها . وهذه القصة تتألف من خمسة فصول كالقصة التى سبقتها وإن كان الفصل الخامس لم يتجاوز مشهداً واحداً قد صيغ فى سطرين . ويصفها فرنسوا اليبير بأنها «مأساة الحاذقين » وأحداثها قليلة جداً . فقد لدغت حية قدم فيلوكتيت ، وكانت آلامه العنيفة تشيع فى نفوس المحاربين إشفاقاً يلينها كما يقول جيد ؛ ومن أجل ذلك ترك الجيش فيلوكتيت فى جزيرة خالية . وقد أوحى الآلهة أن لابد من سلاح هرقل لإحراز النصر ، فانتدب أوديسيوس ونيوبتوليم بن أخيل ليأخذا هذا السلاح من فيلوكتيت . ولكن نيوبتوليم يرى فى سيرة اليونان مع فيلوكتيت ظلماً فيرفض أن يعين عليه أوديسيوس . غير أن أوديسيوس ماكر وهو يمكر برفيقه الفتى ، فيصور له الواجب والوطن تصويراً يضطره إلى الصمت لأنه يقطع حجته .

فإذا انتهيا إلى الجزيرة ولقيا فيلوكتيت أخذ هذا يقص عليهما كيف استكشف وحدته ، فقد بدأ ذلك باستكشاف نفسه، ثم اهتدى إلى معنى الشكوى ثم عرف صفة الألفاظ التى لا تستعمل إلا لتؤدى إلى غاية ، ثم تبين آخر الأمر ما فى الأعمال البريئة من ثراء . بعد عن الناس فاتسع قلبه ونسى نفسه وأصبح مغنى الطبيعة . وأوديسيوس يسمع لهذا كله فلا يطمئن إليه لأنه لا ينتظر منه خيراً ، فيحاول أن يعطف قلب فيلوكتيت على اليونان ولكن فى غير طائل . على أن فيلوكتيت قد كان فى بعض الأوقات مستخفياً وراء كثيب من الثلج (وفى كل مسرحية من مسرحيات جيد من يستخفى) فيسمع حوار الرفيقين ويعرف ما يقصدان إليه . وهو مع ذلك يحنو على الفتى ويدفع إليه القوس ليشدها . وإذا الفتى ينحرف عن أوديسيوس ويتهمه بأنه لم يفهم دخيلة فيلوكتيت ، بل يتجاوز ذلك فيخون أوديسيوس ويظهر فيلوكتيت على الزجاجة التى أعدت لتخديره حتى يمكن أن يسرق منه السلاح . وقد عرف ذلك فيلوكتيت وقدر نتائجه ، وأقدم مع ذلك على شرب ما فى الزجاجة فأخذه النوم ، حتى إذا أفاق فى الفصل الخامس لاحظ أنهما قد أخذا السلاح فلن يعودا إليه وأنه سعيد بهذا العمل الذى أقدم عليه لا ينتظر منه نفعاً .

فأنت ترى أن موضوع القصة ليس مقصوداً لنفسه ، وإنما هو وسيلة إلى تجربة إنسانية لاتحد بزمان . ونحن نقرأ فى قصة أوديبوس (التى سنتحدث عنها بعد حين) قول الملك لابنيه : « تعلما يا ابنىّ أن كل واحد منا يلقى فى شبابه وحشاً يعرض عليه لغزاً يمنعه من أن يمضى الى أمام . »

فنحن نشهد نيوبتوليم الشاب يمر بهذا الطور الفاجع من حياته وهو فى مفرق الطرق يدعوه كل طريق إلى نفسه ، ويود لو استطاع أن يختار وأن يتبين وجه الحق ويتمنى أن يعينه معين على هذا الاختيار. هو قابل لا فاعل لأنه شاب، وهو يسأل أوديسيوس عن الفضيلة لأنها هى الموضوع الذى يعنيه الآن، كما يسأل بعد حين فيلوكتيت عن معنى الاخلاص ، فلا يصادف جواب هذا ولا ذاك منه قلباً جدباً . لقد سافر إلى تلك الجزيرة الغريبة وهو يجهل المهمة التى سافر من أجلها ، ولكنه كان يشعر أنه مستعد للتضحية . لقد ترك كل شئ غير آسف ليبحر مع أوديسيوس . لقد كان يذكر بنوع خاص دروس أخيل . وهو يقول لأوديسيوس : « لقد علمنى أبى ألا أستخدم الكيد أبداً ، كلفنى ما شئت إلا

خيانة الصديق » . أما مذهب أوديسيوس وخلاصة تفكيره فيمكن إيجازه فى كلمتين : « إن الكيد أقوى من القوة » .

ولكن نيوبتوليم شديد الظمأ إلى الوضوح، فاذا طلب إلى أوديسيوس فضلا من التفصيل طلب إليه أن يهدئ من جموح عواطفه وأن يذعن لوحى الآلهة وأمر الدولة، وأن يهب نفسه آخر الأمر لليونان. أما الآلهة فإن نيوبتوليم يكبرهم ويؤمن بسلطانهم، وهو يطلب إلى أوديسيوس أن يؤكد له أن ذوس إله الغيب إذا رضى فسيقدر النصر لليونان . ولكن إيثاره للحرية يأبى عليه أن يؤمن بأن الآلهة يملكون إكراهنا على الفضيلة كما يصورها له أوديسيوس ؛ لأنه يرى أنه لا قيمة للفضيلة إذا أجبر الناس عليها . ولكن أوديسيوس يفجؤه بهذا الجواب المروع : « ألا ترى يا نيوبتوليم أن المهم قبل كل شئ أن تنفذ إرادة الآلهة وإن لم يرض الناس عن نفاذها ؟ » ومن قبل ذلك سمعه يقول : « إن أوامر الآلهة قاسية لأنها تصدر عن الآلهة » .

أما الإخلاص فى خدمة اليونان فلا غرابة فيه. إنه يعرض نفسه للموت فى غير خوف فى سبيل إنقاذ اليونان . وهل صنع أخيل شيئاً إلا أنه مات فى سبيل الوطن ؟ وهو من أجل ذلك يقول فى آخر القصة : « ويحك يا فيلوكتيت ليس من السهل أن يفلت المرء من طاعة اليونان . » على أن فى تصور أوديسيوس لسلطان الوطن كما فى تصوره لسلطان الآلهة نوعاً من الإطلاق والسعة لا يطيقه نيوبتوليم . فأوديسيوس يرى أن كل شئ يهون فى سبيل اليونان ، وهو يبين لرفيقه الشاب أن فيلوكتيت إنما ترك وحيداً لأنه لم يعد قادراً على خدمة اليونان. وهو من أجل ذلك لا يفهم موقف نيوبتوليم . فكيف يمكن أن يفكر الإنسان لحظة فى إنقاذ فرد وإن أضاع ذلك أمة كاملة . فلا سبيل إلى الموازنة بين فيلوكتيت واليونان ، وإنما الوطن أقوم من الصداقة كما أن الوطن كان أقوم عند أجاممنون من ابنته ايفيجينى. طاعة عمياء للآلهة وإخلاص كامل للوطن، ألا يمكن أن يوجد فى عالم أقرب إلى الانسانية أوامر أقل من هذه الأوامر صرامة ؟ وفيلوكتيت ماذا يرى فى هذا كله ؟ أليس لديه هو أيضا سر من أسرار الحياة يستطيع أن يهديه إلى الفتى نيوبتوليم ؟ فقد أجاب أوديسيوس حين سأله الفتى بالأجوبة الملقنة والآراء الموروثة والأفكار المقررة . أما فيلوكتيت فقد رأى نفساً ناشئة تسأله وعقلا يقظاً يتفتح له ، فأخذ يعرض الثروة التى اكتسبها من

التجربة فهو يقول له مثلا : « لم أفهم ما يسمى الفضيلة إلا منذ اعتزلت الناس . » ويقول : « أيتها الفضيلة ، أيتها الفضيلة كم آثرتك منذ كنت وحيداً . » قد علمته عزلته التى فرضت عليه أول الأمر ثم اطمأن إليها على مهل أن الإنسان الذى يعيش بين الناس لا يستطيع أن يأتى عملا بريئا خالصا من الغرض . وانتهت به إلى هذه الحكمة البالغة ، وهى أن يكون الإنسان كما هو دون أن يحفل بالمظاهر . والذى يكشفه فيلوكتيت لنيوبتوليم أنه فى وحدته قد كف عن الأمل والأنين والأحلام والتمنى ، وهو يعوده قليلا قليلا أن يغير نظرته إلى الأشياء كما تعود هو بحيث تظهر الحقيقة مغايرة لصورتها المألوفة . بفضل هذه النظرة الجديدة أصبحت شكاته رائعة وتعبيره ممتازاً ؛ لأن أحداً لم يكن حاضر أمره ليسمع له ، فليس شئ مما يصدر عنه بضائع بل كل شئ فى نفسه ومن حوله ثابت مستقر ثم راجع إليه يرمقه بهذه النظرة التى تنفذ إلى أعماق الأبد . بون بعيد بين فيلوكتيت وأوديسيوس ؛ ولذلك يقول نيوبتوليم : « إنى أشعر بأن الفضيلة ليست واحدة بالقياس إليك وإلى أوديسيوس . » وقد سمى جيد قصته « رسالة المذاهب الثلاثة فى الأخلاق » : الآلهة والوطن ، أما المذهب الثالث فلم يوجد بعد ، وقد مارسه فيلوكتيت فى جزيرته ، فهو يعلم أن هناك فضيلة عليا لا يرقى إليها الانسان إلا قليلا قليلا . وهو يقول لنيوبتوليم : « إنما الفضيلة هى أن يتكلف الانسان ما فوق طاقته » . وهو يفضى بسر المذهب الخلقى الثالث إلى نيوبتوليم ولكن الفتى لا يفطن له . وذلك حين يقول : « إن هناك شيئا فوق الآلهة وهو شخصية الانسان » .

أما قصة الملك كوندول فهى الوحيدة التى مهد لها جيد بمقدمة يستأنف فيها بعض آرائه فى التمثيل ، ويعلن أن من الحق على الكاتب التمثيلى أن يتقاضى أبطاله حقائق لا تستطيع الجماعة أن تقبلها فى حياتها اليومية . فاذا فرضت الأخلاق والعادات والقوانين نقابها على الانسانية (كما يرى ذلك فى شخص كريون المحافظ فى قصة أوديبوس) وجب على صاحب الفن أن يصطنع من الذكاء والشجاعة ما يمكنه من أن يحرر أشخاصه من هذا النقاب .

دعا الملك كوندول حاشيته ، وهى مكونة من فيليب وسيباس وأركيلايوس وفرناس وسيفاكس إلى وليمة فى القصر . ولأول مرة تشهد الملكة نسيا هذه الوليمة وتشهدها حاسرة ؛ فالملك يريد أن يعلم الناس جميعا أنها رائعة الجمال وأنه

سعيد . وقدم السمك إلى الطاعمين. وإذا أركيلايوس يجد فيما قدم إليه منه خاتما عليه هذا النقش الغريب « إنى أخفى السعادة » وقد أحضر جيچيس الصياد البائس الذى حمل السمك إلى القصر والذى امتحن من ليلته بحريق ذهب بكوخه وشباكه . وقد كان هذا الصياد البائس يعتقد أنه لا يملك إلا امرأته تريدو وبؤسه ، ولكن سيباس يلمح بأنه مخطئ حتى فى هذا ؛ لأنه داعب تريدو حين كانت تساعد على تهيئة الوليمة . ولا يكاد جيچيس يسمع بذلك حتى يقتل امرأته . والملك يعطف عليه ويؤويه فى قصره . وقد أزمع أن يبدله من بؤسه نعيما وأن يتخذه لنفسه نديماً .

ونحن نراه فى الفصل الثانى قد خلا إلى جيچيس ويتحدث إليه فى تبسط وقد تغيرت حاله ، فهو يرفل فى ثوب فخم وقد أدار حول عنقه عقداً ملكيا ليكبره أهل القصر فلا يردّوا له أمراً . ولكن ثقة الملك بجيچيس قد بلغت أقصاها ، فهو يلحّ عليه فى أن يرى الملكة ، وهو يتحدث إليه بأمر هذا الخاتم الذى يخفى حامله عن الأنظار وهو حاضر يرى كل شىء . وهو يكره جيچيس على أن يحمله . وقد أقبلت نيسيا واثقة بأنها بمأمن من الرقباء فهى تفيض حناناً على الملك ، وهى تتجرد من ثيابها ، وقد ثار فى نفس الملك صراع عنيف فهو يرد نفسه إلى الحزم ويأخذها بما أزمع من هذه المؤامرة . « من ذا الذى يستطيع أن يقدم على هذا آخر الدهر إن لم تقدم عليه أنت ، تشجع إذن . » وهو ينسل فى رفق ويأمر جيچيس بالبقاء .

فإذا كان الفصل الثالث فان الحاشية التى رأيناها تشهد الوليمة تختصم حول لغز الخاتم الذى وجد فى السمكة : فالملك فيما يظهر يطلب هذا الخاتم وهو قلق ؛ فقد اعترفت له نيسيا بأنها فى الليلة الماضية قد ذاقت أعذب الحب الذى تطمع فيه امرأة . وقد سمع جيچيس هذ الاعتراف فينزع الخاتم وينبئ الملكة بأنه صاحب تلك الليلة الرائعه .

والملك الذى يمتاز بكرم لا يعدله عند چيد إلا استعداد شاول لتلقى كل إنسان يتحدث إلى أصحابه بأنه منذ الآن حريص على أن يحتفظ لنفسه بامرأته وثروته ، وفى أثناء ذلك تصدر الملكة أمرها إلى جيچيس بأن يقتل زوجها . فيتردد ثم يقدم ، ثم تتخذه نيسيا لها زوجاً ، وينتقل الملك إلى الصياد البائس القديم .

موضوع خطير كما ترى يشبه قصص ألف ليلة وليلة . يسيطر عليه القضاء كما هى الحال فى مسرحيات چيد كلها . ورمز القضاء هنا هو خاتم جيچيس ، كما

أن رمزه فى قصة شاول هو الاستطلاع ، ولكن قيمة الموضوع هنا شىء آخر .

فأمام هذا المنظر الذى يمثل هذه الحاشية المستهترة وقد عنى كل واحد منها بمكانه على المائدة وأخذوا يضاحكون من حياء الملكة ويأسفون لغيبة تريدو ويسكرون حتى يتساقطوا تحت المائدة ، أمام هذا المنظر ينفرد شخصا كوندول وچيچيس ، وقد أخذهما چيد من أقصى طرفى السلسلة الاجتماعية : أحدهما بائس يرى أن من الخير أن يجد الإنسان قليلا وأن يحتفظ بهذا القليل لنفسه ، رجل قنوع يسأله الملك : « أتشرب الخمر أحيانا ؟ » فيجيب : « لا أكاد أذوقها » ، ولكنه فوق كل شىء رجل أبى يدعو نفسه قائلا : « هلم ياچيچيس الأبى » فاذا دعاه الخدم إلى أن يشاركهم فى شرابهم لأن الملك قد أمن أن يسكر الخدم جميعاً أجاب بأنه ليس خادماً للملك . ونحن نعلم مع ذلك أنه يحب الملك ويألم حين يراه محاطاً بهؤلاء الأغرار المتملقين . وهذا الإباء الذى يمنعه من أن يستغل كرم الملك يدفعه إلى قتل امرأته ، وهو مصدر هذه الحرية التى تشاهد فى مظهره وتفكيره والتى تتيح له أن يقول للملك : « أيها الملك لست خادماً لك » والملك يقبل منه هذه اللهجة فهو عظيم الثراء ولكنه عظيم الحظ من الفلسفة . وإذا كان چيچيس حريصاً على أن يحتفظ بشىء لنفسه فان الملك حريص على ألا يحتفظ بشىء ، فهو الكرم نفسه وهو يضيف فى قصره كل من يمر به لا عن التماس للمنفعة ولا عن حماقة ، بل كما يقول چيد عن كرم متردد غير مستقر . وليس فى حبائه شىء من التعالى المهين فان ميوله كلها رفيعة ، وهو من أجل ذلك يؤثر سيباس بالتين الأبيض ، ويثنى على فرناس لذكائه ويهنىء سيفاكس بشعره ويداعب أركيلايوس لأنه يسرف فى حب اللاعبات . وهو حين يزدرى المتملقين إنما يصدر فى ذلك عن تقديره للمودة . وشىء واحد بالضبط هو الذى يحرمه السعادة ، وهو أنه لا صديق له . ولكن كوندول كشاول يحمل فى أعماق نفسه مصدر هزيمته . فهذه المبادىء التى تدبّر أمره تعطى الحياة معنى لا تلبث أن تفقده . وهو يقول لحاشيته إنه يعتقد « أن البهجة تضاعف حين يقتسمها المرء مع أصحابه ، وإن البهجة التى يستأثر بها الفرد توشك أن تكون مسروقة . وهو على الجملة لا يريد أن يسير سيرة البخيل المحتكر فيستأثر وحده بالنور » . والخاتم هو الذى يثير القلق فى نفسه . يثور حين يشرب الناس نخب كوندول أسعد أهل الأرض ، يثور ثم يحاول أن يفسر ثورته ، « فما السعادة ؟ أيمكن أن يرى الانسان

سعادته ؟ أهى فى أن يملك الإنسان شيئاً ؟ » فقد رأينا فيلوكتيت سعيداً حين لاحظ أنه قد تجرّد من كل شىء ، أما كوندول فلا يستطيع أن يعرف هذه التجربة لأنه عظيم الثراء ولكن الملك بالقياس إليه ليس احتيازاً وإنما هو تجربة . فسظل قلقاً ما دام چيچيس لا يحيط بكل ثروته . فقد كان شديد الالم لأنه كان يعرف وحده جمال الملكة ، وقد بلا نفسه بتجربة أولى حين أظهر الملكة للحاشية ، وهو منطقى مع نفسه ، فلا بدّ من أن يظهرها لچيچيس . وقد رأينا عاقبة ذلك ؛ فقد مات كوندول لأنه أراد أن يعطى كل شىء فكان أشبه بهذا الطائر الذى يتحدث عنه فيلوكتيت والذى « مات لأنه همّ أن يطير » .

هذا الصراع الذى شهدناه بين صورتين من السعادة يعرضه علينا جيد فى صورة أشمل حين يعرض علينا قصه أوديپوس . وأنا أمر مسرعاً بخلاصتها . فالشعب ممتحن بالطاعون ، وليس من شك فى أن هذا عقاب من الآلهة فلا بد من أن يهلك مَنْ جرّ هذا الشر على الأبرياء ، يجب أن يثأر للايوس (ملك ثيبة الذى قتل) حتى يحوّل الإله هذا الوباء عن المدينة . وأوديپوس يريد أن يلتمس القاتل ولكن الكاهن الأعظم تريسياس يلحّ فى لوم أوديپوس على تهاونه فى الدين . وفى نفس الملك شىء من قلق . ومع أنه كان يكره الحديث عن الماضى فقد أخذ يشرف على البحث بنفسه ، وهو يلحّ فى المسألة على كريون ويوكاستيه يريد أن يعرف كل شىء وأن يصل إلى الأطمئنان ولكن إلى الأطمئنان المشرق الصريح لامساومة فيه . لماذا تؤجل الحقيقة ؟ إن الحقيقة لا تحب الأنتظار . وقد رأى كريون تتصل ويوكاستيه تراوغ فيستبين له أنه هو الذى قتل لايوس هنالك تقتل يوكاستيه نفسها ، ويفقأ أوديپوس عينيه ، وقد أراد كريون وارادت معه الجوقة أن ينفى أوديپوس نفسه عن المدينة ، وهو يهمّ أن ينصرف ولكن تريسياس يعلن أن الآلهة قد قضوا بالبركة للأرض التى يستقر فيها جثمانه إذا مات . فما أسرع ما يتحول كريون وتتحول معه الجوقة وإذا هم يلحون على اوديپوس أن يبقى بينهم ولكن فى غير طائل .

هذه القصة تعرض علينا رجلا تضطهده الآلهة ويدفعه القضاء إلى مصيره ولكنه مع ذلك حريص أشد الحرص على أن يبقى كما هو ، فهو يضحى بنور عينيه فى سبيل نور آخر أعظم منه بهاء وأشد إشراقاً وهو نور الحياة . كان يحمل على

رغمه نقاباً يخفى عليه الحق ، ولـكنه لم يزل يجد ويلح في الجد حتى يضعه عن نفسه لأنه يبغض الـكذب ولا يعدل بالحق البين شيئاً. له شخصية عنيفة ،فهو من أجل ذلك سعيد لأنه ليس مديناً لأحد بسعادته، وهو لايتردد في إعلان ذلك بل هو لايتردد في أن يعلن ألواناً من الشعور لا تباح للناس إلا في كثير من الاحتياط والاستخفاء. كان له رأى خطير فى كرامة الإنسان، وكان يرى أن شيئاً لا ينبغى أن يقف الانسان الطامح عن النظر إلى بعيد، وهو من أجل ذلك لا يتردد فى أن يشيد بمعنى الرجولة، وهو لا يعرف غير هذا جواباً لـكل المسائل التى تثار له من كل وجه . هذا الإيمان بشخصية الفرد الذى نلحظه عند فيلوكتيت نجد رجع صداه عند أوديپوس، وهو يقول « إن هذا الرجل الوحيد » بالقياس إلى كل منا ، هى شخصيته هو ». ومن هنا هذه الحرية الفاجعة التى تثبت للخطوب حين يخيل أن كل شيء من حولها ينهار ، وأن العالم لا يظهر إلا اعداء ، وأن السعادة ليست إلا سخرية ، وهو يقول : « إنما أضحى بنفسى عن رضا » ويقول مشيراً إلى أبنائه : « إنما أترك لهم عن رضا مملـكة لم يخضعها الفتح » . وإذا كانت الآلهة قد أرادت أن يـكون النور خاطفاً للأبصار فقد أراد أوديپوس حرًا أن يخطف بصره هذا النور .

فما أشد الشحوب الذى تمتاز به حكمة يوكاستيه وكريون أمام هذا الإصرار الذى نجده عند أوديپوس ! إنهما يقوداننا إلى عالم من التردد والتوهم والتماس المنافع . وكريون يرى أن الخطر أن يلفت الشعب إلى مقتل لايوس ، ويوكاستيه لا تريد أن يغض من قدر الـكاهن أمام الشباب . ولماذا ؟ لأن من المقرر أن تجهل الشعوب مشكلات الملوك، ولأن الناس جميعاً يعرفون أن الـكاهن الأعظم يجب أن يحترم. فهما يكبران كل ما يحتقره أوديپوس، وهما على أقل تقدير يعترفان بذلك . يقول كريون لأوديپوس : « إنك تعـلم حرصى على الشعور بواجبات الأسرة » . ويردد الملك : « لقد تجدد كل شيء ». ويعترف كريون بأن الماضى يقيده فلا يستطيع ألا يكون محافظاً ، وهو على إذعانه وموافقته للأصول المقررة قادر على أن يخرج من المآزق .

وليس أوديپوس حريصاً على أن يظل كما هو بالقياس إلى يوكاستيه وكريون وحدهما، فهناك تريسياس وهو أعظم خطراً من سائر الناس بالقياس إلى الذين يقدرون التقاليد والعادات والقوانين المرسومة ، هو ينبئ عن الإله الحق الذى يعرف

سرائر النفوس ، وهو فى الوقت نفسه يدبر حرباً خفية على وديبوس ،وهو لذلك يذكرنا بنابال فى قصة شاول، ولـكن نابال كان يريد أن يستكشف الملك لينقذه من القلق على حـين يريد تريسياس أن يقلق الملك ليستكشف السر . خطته ألا يطمئن الملك على سعادته الفاجرة وأن يصدع ابتهاجه ويزعزع ثقته .

من هذا الاختلاف بين هذه الأفـكار ، وبين هذه العقليات ، وبين هذه العقائد، مضافاً إليها الضرورة المحتومة، تنشأ مأساة أوديبوس التى يتقبلها جيد فى فنه التمثيلى محاطة بهالة من النور مقصورة عليه .

وقد كتب جيد سنة ١٩١٩ : «إن الأسطورة اليونانية أشبه بجرة فيليمون التى لا تغيض مهما يشرب منها الظامئ حين ينادم چوبيتير » . ولذلك استطاع أن يصنع سنة ١٩٣١ أوديبوس جديداً خُلق من ظمئه . ويقول جيد : « إن الأثر الفنى يمتاز بهذه المعجزة ، وهى أنه يدل دائماً على أكثر مما أراد مبدعه ، وهو يتيح دائماً تفسيراً جديداً . » فلـكل قارئ إذن أن يتلقى فى قصص جيد ما يمنحها القوة ، وأن يفهم ما فيها من الدروس الانسانية فهماً يلائم طاقته ومزاجه الخاص .

ولننقل من الناحية الادبية الخالصة . إن المحاولات التى يبدلها كثير من أصحاب القصص ليجربوا أنفسهم فى فن غير الفن الذى ألفوه ، فيخرجوا من القصص إلى المسرح ، هذه المحاولات ليست فى حقيقة الأمر الا خلاصة الفن عند جيد . أريد أن التمثيل هو الأساس لأدب جيد . فنحن حين نقرأ كتاباً من كتب پروست نتخيل حديثاً بين الـكاتب وبين نفسه ، تمضى فيـه الجمل متتابعة على خط واحد ، فهو ليس فى حاجة إلى من يرد عليه رجع الحديث لأنه يتبع خاطره . أما فن جيد فشئ آخر : يقتضى ثنائية، ويتغذى من كل المناقضات، ويقتضى عالماً لا « تتجاوب فيه الأصوات والعطور » وحدها بل تتجاوب فيه ألوان الشعور ، وضروب الحس ، وفنون الأفـكار . فآثار جيد كلها حوار وهى تمثيلية بالمعنى اللغوى لهذه الـكلمة؛ لأنهـا تنشئ حيزاً لـكل الممكنات ؛ وكل شئ ممكن بالقياس إلى جيد فى حدود الطبيعة .

فليس غريباً أن يكون التمثيل قد قدم إلى جيد صيغة بسيكولوچية عظيمة الخطر موفورة الغناء .

ريمون فرنسيس